الباب الأول

أدلة تدوين وتوثيق السنة النبوية في عهد الرسول (ﷺ) وأصحابه رضي الله عنهم

محتوى الباب الأول

الفصل الأول:

انتشار الكتابة بين العرب قبل الإسلام

الفصل الثاني:

انتشار الكتابة بين الصحابة رضي الله عنهم

الفصل الثالث:

إباحة تدوين السنة وبطلان نظرية النهي المطلق عن كتابة السنة.

الفصل الرابع:

كثرة كُتَّاب النبي وتخصصهم والمكثرون والمقلون من الصحابة وأسباب ذلك.

الفصل الأول

انتشار الكتابة بين العرب قبل الإسلام

تمهيد: مفهوم الكِتاب والكِتابة والكاتب.

أولاً: نشأة الخط العربي.

ثانياً: أدلة انتشار الكتابة عند العرب قبل الإسلام.

ثالثاً: مواد الكتابة عند العرب قبل الإسلام.

رابعاً: أدوات الكتابة عند العرب قبل الإسلام.

٤٩

تمهيد: مفهوم الكتاب والكتابة والكاتب:

لعلماء اللغة حول مفهوم الكتاب والكتابة والكاتب أقوال متعددة. قال ابن منظور: "الكتاب: الصحيفة والدواة، عن اللحياني، وقيل ما يكتب فيه.. والمُكْتِب: المعلم، والمكتِّب: الذي يعلم الكتابة، والمُكْتِب: موضوع الكُتَّاب"(١).

فقد أطلق ابن منظور لفظ الكتاب على الصحيفة، والكاتب على الذي يعلم الكتابة وقال إبراهيم مصطفى: "الكتابة: صناعة الكاتب"(٢).

وجاء في المنجد: "الكتابة: ما كتب، أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه في أوقات معينة فإذا أدَّاه صار حراً"(٣).

وقال الرازي: "واكتتب: أي كتب ومنه قوله تعالى: "اكْتَتَبَهَا" واستكتبه الشيء سأله أن يكتبه له"(٤).

وقال الفيومي المقري: "تطلق الكتبة والكتاب على المكتوب. ويطلق الكتاب على المنزل وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله"(٥).

وهكذا يدور لفظ الكتابة حول صناعة الكتابة أو ما يكتب.

نشأة الخط العربي:

قبل الحديث عن حال الكتابة بين العرب قبل الإسلام أود أن أشير إلى أصل الخط العربي ونشأته في عجاله إذ تتأرجح حوله الآراء في القديم والحديث.

فمن الباحثين من يرى أن أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة (كتب).

(٢) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط مادة (كتب).

(٣) المنجد في اللغة والأعلام. مادة (كتب).

(٤) الرازي: مختار الصحاح: مادة (كتب).

(٥) الفيومي المقري: المصباح المنير: مادة (كتب).

الكتب آدم (ﷺ) ، قبل موته بثلاثمائة سنة كتبها في طين وطبخة، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي[1]. وهذا يدل على أن تعلم الخط العربي توقيفاً علمه اللهُ آدمَ - عليه السلام- ثم أصابه إسماعيل -عليه السلام- من بعده.

ومن الباحثين من يرى أن إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم بعد آدم (ﷺ) [2].

ومنهم من يرى أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه[3].

ويذهب بعضهم إلى أن ثلاثة نفر من طيئ اجتمعوا ببقعة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسموا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها[4].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٤ ص ٢١١ ط / دار الفر سنة / ١٩٨٧م
- الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١ ط / مطبعة الحلبي سنة / ١٩٨٠م
- ابن فارس: الصاحبي ص١٠ ط / دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ.
- الماوردي: أدب الدنيا والدين ص ٦٧ ط / دار ومكتبة الهلال سنة / ١٩٨٥م.
- القلقشندي: صبح الأعشي جـ٣، ص٩، ط / دار الكتب العلمية سنة / بدون.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٤ ص٢١١-٢١٢
- الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١
- الماروردي: أدب الدنيا والدين ص٦٨

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٤ ص٢١٢
- ابن فارس: الصاحبي ص١٠
- الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١

(٤) السيد محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب =

والبعض الآخر يرى: أن أول من كتب بالعربية من العرب حرب بن أمية ابن عبد شمس[1].

وإني أميل إلى الرأي الأول الذي يرى أن تعلم الخط العربي توقيفي علمه الله -تعالى- آدم - عليه السلام-.

أدلة انتشار الكتابة عند العرب قبل الإسلام:

يجدر قبل الحديث على أدلة انتشار الكتابة عند الرب قبل الإسلام أن أذكر قول ابن فارس في كتابه الصاحبي حيث يقول: " . . لمْ نزعم أن العرب كلها مدراً ووبراً قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم: فما كل يحرف الكتابة والخط والقراءة"[2]. فحال العصر الجاهلي كحال العصر الحاضر بل أرى أنهم كانوا على درجة عالية من العلم والقراءة والكتابة وإلا فلم نزل القرآن بلغتهم وتحداهم في بلاغته وإعجازه، وأن كل نبي كان يرسل إلى قومه ويتحداهم فيما برعوا ونبغوا فيه وتلك بعض الأدلة التي تؤيد انتشار الكتابة في العصر الجاهلي.

١- المدارس والكتاتيب:

لم يخل العصر الجاهلي من وجود المدارس وخاصة كما يقول ناصر

= جـ٣ ص٣٦٨، ط/ دار الكتب العلمية. س / بدون.

-البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٥٢-٤٥٣ ط / دار ومكتبة الهلال س /١٩٨٣م.

- الجهشياري: الوزراء، والكتب ص١

- ابن النديم: الفهرست ص١٤ ط / دار المعرفة بيروت سنة ١٩٩٧م.

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١

- صديق بن حسين الفنوجي: أبجد العلوم جـ١ ص١٥٧ ط / وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - س / ١٩٨٧م.

(٢) ابن فارس: الصاحبي ص١٢)

الدين الأسد: "قامت في البيئات الجاهلية المتحضرة مثل مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار وغيرها مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية"[1]. كما كانت تعقد الكتاتيب للدراسة يتعلم فيها الصبيان الكتابة والشعر وأيام العرب وغير ذلك. وعن وجود الكتاتيب في العصر الجاهلي ورد "أن عدى بن زيد العبادي (٣٥٠ ق هـ) حين نما وأيفع طرحه أبوه في الكتّاب حتى حذق العربية، ثم دخل ديوان كسري.."[2]. وهذا مما يدل على انتشار الكتاتيب في العصر الجاهلي:

٢- المعلمون:

كان لابد لهذه المدارس والكتاتيب من معلمين يشرفون عليها وكانوا من أصحاب المكانة الرفيعة والمنزلة العالية. فمن هؤلاء المعلمين في الجاهلية: عمرو بن زرارة، وكان يسمى الكاتب، وغيلان بن سلمة بن معتب، وهو جاهلي أسلم يوم الطائف، وأبو سفيان بن أمية بن عبد شمس، وبشر بن عبد الملك السكوني، وأبي قيس بن عبد مناف بن زهرة، وأبي جفينة[3]. وغيرهم كثير.

٣- الكامل:

إن مصطلح "الكامل" الذي وجد في الأدبين الجاهلي، والإسلامي في مراحله المبكرة يبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتابة كان ينظر إليها نظرة تبجيل واحترام، ففي هذا العصر كان الرجل الذي يظهر براعة في التجارة أو

(١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص٥٢ ط / دار الجيل. س / ١٩٩٦م.

(٢) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين ص٢٩٥ ط / دار الفكر س / ١٩٨١م.

- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص١١٤

(٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص٥٠

- محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين ص٢٩٥

السباحة أو الكتابة يحظى بلقب شرفي وهو "الكامل"[1].

ومن هنا يظهر شرف أصحاب الكتابة في العصر الجاهلي.

٤- الرسائل:

من يقرأ أخبار الجاهلية في كتب الأدب أو كتب التاريخ يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك، ولعله يدرك أن كتابة الرسائل في العصر الجاهلي أمر ميسور ومألوف في شتى الشئون، وسوف أكتفى بذكر أمثلة لا أثبت نصوصها - توخياً للإيجار - ولأدلل على انتشار الكتابة وكثرتَها في العصر الجاهلي.

فمن رسائلهم: كتاب المنذر الأكبر إلى أنو شروان، وكتاب عمرو بن هند إلى عامله على البحرين "صحيفة المتلمس"، وكتاب عبد العزي بن امرئ القيس الكلبي إلى قومه، وكتاب عدى بن زيد العبادي إلى أخيه أبي، ورد أخيه أبيّ عليه، وكتاب النعمان بن المنذر إلى كسري، وكتاب عبد المطلب ابن هاشم إلى أخواله، بيثرب، وكتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة، وكتاب أكثم بن صيفي إلى النعمان بن خميصة البارقي[2]. وغير ذلك من الرسائل الكثيرة التي أورد بعضها الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه مصادر الشعر الجاهلي مما يعد دليلاً على انتشار الكتابة في العصر الجاهلي.

٥- العهود والمواثيق والأحلاف:

كان أهل الجاهلية يحرصون على كتابة العهود والمواثيق والأحلاف ما وسعهم أفرادا وجماعات.

---

(١) امتياز أحمد: دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ص١٧٠، ط / دار الوفاء للطباعة والنشر س/ ١٩٩٠م.

- محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث ص١٤٠ ط / دار المعارف ص/ ١٩٨٨م.

(٢) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب جـ١ ص٩-٣٠ ط / المكتبة العلمية س / بدون.

وقد ورد ذكر هذه العهود المكتوبة في الشعر الجاهلي، قال الحارث بن حلزة اليشكري في شأن بكر وتغلب[1].

واذكروا حلف ذي المجازوما قرّ فيه، العهود والكُفَلاءُ[2]

حذر الجور والتعدي وهل ينـ قض ما في المهارق[3] الأهواءُ؟

ومن ذلك قول درهم بن زيد الأوسى يذكر الخزرج ما بينهم من عهود مكتوبة على الصحف:

وإن ما بيننا وبينكم حين يقال: الأرحام والصحف

ويعني بالصحف: العهود والمواثيق والأحلاف المسجلة في الصحائف[4] ومن الأحلاف: نص الاتفاق القبائلي بين قحطان وربيعة، وحلف آخر بين عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله (ﷺ) ورجال من خزاعة[5].

ومن أشهر هذه العهود والمواثيق: صحيفة قريش التي تعاقدوا فيها "على بني هاشم وبني المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم"[6]

فقد تعاهدوا وتواثقوا على مقاطعة الرسول وأصحابه وكتبوا بذلك صحيفة.

---

(١) عبد العزيز نبوي- شرح معلقتي طرفة بن العبد والحارث بن حلزة- الصدر لخدمات الطباعة القاهرة- ط/ الأولى- سنة/ ١٩٨٩م.

(٢) الكفلاء: الرهائن.

(٣) المهارق: كتب العهود والمواثيق والأمان.

(٤) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص٦٥-٦٦

(٥) امتياز أحمد: دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ص١٧١

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٣، ط / دار الفجر - القاهرة س / ١٩٩٩م.

ومن هذه المعاهدات والاتفاقيات المكتوبة دليل بين على أن الكتابة كانت موجودة ومنتشرة في العصر الجاهلي.

٦- الصكوك:

هي من أكثر الموضوعات الكتابية انتشاراً؛ لأنها مرتبطة بحاجات المرء وحياته المعاشية، حيث كان العرب يكتبون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم.

ومما ورد في ذلك كتاب رسول الله (ﷺ) لثقيف، فقد جاء فيه "وما كان لثقيف من دين في صحفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم..."[1].

وقد كان كثير من القوم آنذاك تجاراً، فكان من الطبيعي أن يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة يحفظون به حقوقهم أن تضيع، حتى إن النساء التاجرات كن يلجأن إلى هذه الوسيلة، شأنهن في ذلك شأن الرجال. وقد حفظ لنا الشعر الجاهلي ذكر هذا الضرب من الصحف التي يسجل فيها الدين، قال علباء بن أرقم بن عوف من بني بكر بن وائل:

أخذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أوظلم[2]

وغير ذلك من الصكوك الكثيرة التي تثبت الاستدلال على وجود الكتابة.

٧- الكتابة بالنقش:

مصدر آخر هام للمعلومات المتعلقة بالكتابة العربية في فترة ما قبل الإسلام، والنقوش التي لم يكتشف بعضها إلا منذ وقت قريب. من ذلك نقش على مقبرة لأحدهم يدعى امرؤ القيس والمؤرخ سنة ٣٢٨م، ونقش آخر مؤرخ

(١) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٨٤-٢٨٥، ط / دار النفائس س / ١٩٨٧م.

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص٦٩ .

سنة ٢١٠م وجد في وادي المكتب في طور سيناء، ويشير الأزرقي إلى العديد من النقوش على أحجار الكعبة، وبعض هذه النقوس لم تكتشف إلا حين أعادة بناءها[١].

وبهذا يتبين أن الكتابة كانت منتشرة قبل مجيء الإسلام بمئات السنين.

كما عثر على حجر بمسجد السور عند قبر المربين حينما انحسر السيل عن الأرض، وفيه كتابة نقشها أسيد بن أبي العيص[٢]. وغير ذلك من الكتابة بالنقش كدليل على انتشار الكتابة قبل الإسلام.

٨- كتابة الشعر والأنساب والأخبار:

ونأتي إلى أغنى ميراث للعرب ألا وهو الشعر، وبخصوص تدوين الشعر في هذه الفترة يقال إن قبائل معينة اعتادت أن تسجل قصائد شعرائها، ومن المعروف أن بعض الشعر الجاهلي نقش بحروف من ذهب، وعلق على أبواب الكعبة، وبالإضافة إلى الشعر فإن علم الأنساب القبلية والتأريخ لحروب القبائل (أيام العرب) شكلت أيضاً جزءاً من المواد المكتوبة[٣].

وقد أفاض ناصر الدين الأسد في كتابة القيم: مصادر الشعر الجاهلي في موضع كتابة النسب والشعر والأخبار. وإنما أردت الاختصار للاستدلال ولأدحض الإدعاء بجهل الكتابة والتدوين في مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام.

مواد الكتابة عند العرب قبل الإسلام:

تعددت المواد التي استخدمت للكتابة آنذاك ومن المواد التي كانوا يكتبون عليها:

---

(١) امتياز أحمد: دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ص١٧٢ .

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص ٧٦ .

(٣) امتياز أحمد: دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث ص١٧٣ .

الجلد، والقماش، والنبات، والعظام، والحجـارة، والورق وسوف أوجزها فيما يلي:

١- الجلد: وكـانوا يسمـونه: "الرق"[١]، و"الأديم"[٢]، و"القضـيم"[٣]. وقد ورد ذكرها كلها في الشعر الجاهلي:

ففي الرَّقِّ: قول طرفة[٤].

كسطورِ الرَّقِّ رَقَّشَهُ بالضُّحى مَرَقِّشُ يَشِمُه

وفي الأديم: يقول المرقش الأكبر[٥]

الدَّارُ وَحْشٌ والرُّسُومُ كَمَا رَقَّش في ظهرِ الأديم قَلَمْ

وفي القضيم: يقول النابغة الذبياني[٦]

كأن مَجرَّ الرامِسَاتِ ذُيُولَها عليه قضيمُ نِمقْتُهُ الصَّوانِعُ

٢- القماش: وهو إما حرير وإما قطن، ويطلقون على الصحف إذا كانت من القماش: المهارق، مفردها: المُهْرَق، وورد ذكر المهارق في الشعر الجاهلي، فمن ذلك ما ذكره الحارث بن حلزة في معلقته:

واذكروا حلفَ ذي المَجَازِ وما قُدِّم فيه، العُهودُ والكُفَلاءُ

حَذَرَ الجَوْرِ والتعدِّي، وهل ينقص ما في المهارق الأهواء[٧]

---

(١) الرق: الجلد الرقيق الذي يسوَّى ويرقق ويكتب عليه.

(٢) الأديم: الجلد الأحمر أو المدبوغ.

(٣) القضيم: الجلد الأبيض يكتب فيه.

(٤) على الجندي: تاريخ الأدبي الجاهلي ص١٣٩ ط / مكتبة النصر س / ١٩٨٧م.

(٥) المصدر نفسه: ص١٣٩ .

(٦) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ص٧٧ .

(٧) المصدر مفسه :ص٨٠ ـ ٨١ .

٣- **النبات**: وأشهر أنواعه العسيب، وهو السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها، ومن الشعر الجاهلي الذي ورد فيه ذكر العسيب قول امرئ القيس[١].

لمن طَلَلٌ أبصرتُه فَشجَاني كَخَطِّ الزَّبورِ في العَسيب اليماني

٤- **العظام**: وأشهر أنواع العظام التي كانوا يكتبون عليها: الكتف والأضلاع.

٥- **الحجارة**: وكانت الحجارة ضمن المواد التي كان العرب في الجاهلية يستخدمونها في الكتابة، وكانت الكتابة والنقش على الحجر يسميان: الوحي، وقال زهير[٢].

لِمَن الدِّيارُ غَشْيتُهَا بالفَدْفَدِ كالوحي في حَجَرِ المسيلِ المُخْلِدِ

٧- **الورق**: لقد ترددت كلمة "الورق" في الشعر الجاهلي وأخبار صدر الإسلام فمن ذلك قول حسان بن ثابت[٣]:

عَرَفْتُ ديارُ زَيْنَبَ بالكثيبِ كخَطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشيبِ

وهكذا نرى أن العرب في العصر الجاهلي ما تركوا وسيلة يكتبون عليها إلا استخدموها مما يدل على انتشار الكتابة لديهم.

أدوات الكتابة عند العرب قبل الإسلام:

تعددت الأدوات التي استخدمها العرب قبل الإسلام في الكتابة وأهمها القلم والدواة والحبر.

١- **القلم**: القلم في الجاهلية كما تصفه النصوص مصنوع من القصب يُقَطُّ

---

(١) امرؤ القيس: ديوانه ص١٦٥ ط / دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ.

(٢) يحيى الشامي: زهير بن أبي سلمى الشاعر الحكيم ص٧٠ ط / دار الفكر العربي - بيروت سنة / ١٩٩٧م ، الفدفد الأرض المرتفعة المستوية، المُخْلِد : المقيم.

(٣) حسان بن ثابت : ديوانه ص ٢٤ ط / دار الكتب العلمية - بيروت سنة / ١٩٩٤م.

ويقلم أو يبرَي ثم يغمس في مداد الدواة ويكتب به، قال عدى بن زيد[1].

ما تبين العين من آياتها غيرَ نُؤْيٍ مثل خطٍّ بالقَلَمْ

وقال الزبرقان بن بدر[2].

هم يهلكون ويبقى بعد ما صنعوا كأن آثارهم خطت بأقلامِ

فقد وردت أبيات كثيرة لشعراء العصر الجاهلي ورد فيها ذكر القلم مما يدل على استخدام الكتابة في العصر الجاهلي.

٢- **الدواة والمداد**: وقد ورد ذكرهما كذلك في الشعر الجاهلي، قال عبد الله ابن عنْمَة[3].

فلم يَبْقَ إلا دِمْنَةٌ ومنازلُ كما رُدَّ في خَطِّ الدواة مِدادُها

وكانوا أحياناً يمحون المكتوب بالمداد حين تنقضي حاجتهم منه، ثم يستخدمون الصحيفة لكتابة شأن آخر من شئونهم.

وقد وردت أبيات كثيرة لكثير من شعراء العصر الجاهلي أمثال أمية بن أبي الصلت، والمرقش، وشُتَيم بن خويلد، ولبيد، وغيرهم ورد فيها ذكر القلم، والدواة، والحبر.

• • •

(١) الأصفهاني : الأغاني : جـ٢، ص ١١٩

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين : جـ٣، ص١٥٢ ط / دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.

(٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، ص٩٩ .

نتائج وفوائد:

يتضح من خلال ما قدمته في هذا الفصل عدة نتائج مهمة وهي:

١- إن الكتابة في العصر الجاهلي قديمة ومنتشرة يتضح ذلك من خلال انتشار الرسائل بين بعضهم البعض، وكثرة العهود والمواثيق والأحلاف، والصكوك والكتابة بالنقش وتدوين الشعر والنسب والأخبار.

٢- معرفة عرب العصر الجاهلي للكتابة معرفة واسعة تبعد عنهم ما وصفوا به من الجهل بالكتابة، وقد دللت على ذلك من انتشار المدارس والكتاتيب والمعلمين وخاصة في الأماكن المتحضرة مثل مكة والمدنية والطائف والحيرة والأنبار.

٣- اتساع مجال الكتابة وتشعب موادها وأدواتها، فمن المواد التي كان عرب الجاهلية يستخدمونها: الجلد، والقماش، والنبات، والعظام، والحجارة والورق. ومن الأدوات القلم والدواة والمداد. وانتهيت من ذلك إلى إثبات انتشار الكتابة في العصر الجاهلي، وهذا بطبيعة بحثي يقودني إلى الحديث عن حالة الكتابة بين الصحابة في صدر الإسلام.